

العالم كبنية سياسية نافية مفهوم ياسين الحاج صالح عن المنفى

السيد السحيمي

شباط 2020



صورة الغلاف بإذن من ياسين الحاج صالح، 2016.

العالم كبنية سياسية نافية

مفهوم ياسين الحاج صالح عن المنفى

(ينشر هذا البحث بالتعاون والشراكة بين مشروع حلب وحكاية ما انحكت)

ملخص¹

تُناقش هذه الورقة البحثية فهمَ الكاتب ياسين الحاج صالح لظاهرة المنفى التي صاحبت الانتفاضات العربية على اختلافها وتشعبها، رجاءً أن تُضيفَ إلى المحصول الأكاديمي الذي يُناقش مساهماته في المجالات الثقافية والسياسية العربية. في اللغة العربية، نفي الشيء: سلبه. ولطالما استخدم الحاج صالح كلمة 'المنفى' بناءً على هذا التصور اللغوي للكلمة، ليقصدَ بها أيّ فعلٍ ينفي فعلاً آخر قسراً ودون وجه حق. يضعُ الحاج صالح تجارب السجن والاعتصاب والتغيب القسري و'المنسى' بموازاة تجربة المنفى، ليُصبح معنى المنفى متصلًا بمعاني الوطن والحرية والنفس؛ وهي أركانٌ هامةٌ لتوضيح ما يعنيه الحاج صالح في كتاباته عن المنفى. من خلال هذه الورقة، أركّز على فهم الحاج صالح لمصطلح 'المنفى'، مُستعرضاً فهمي لآرائه عن المنفى كفعل يسلب التاريخ والحرية والوطن بواسطة سلطة نافية. بناءً على ذلك، أوضح كيف يمكن سلب ما قد سلب سلفاً خلال عمليتي الاستحباس والاستنفاء كمحاولات ل'نفي المنفى'. واستناداً إلى ذلك، أستعرضُ كيف يوضح الحاج صالح استقلالية تجربة المنفى وتبعيتها لغيرها من المُجريات في آنٍ، وكيف يُميّز بين اللاجئ والمنفي. أختتم الورقة ببيان كيف يُجادل الحاج صالح عن نهاية المنفى وكيف يفكر في 'العالم' كمنفى من جهة وكيف أصبح المنفى عالمياً من جهةٍ أخرى.

1 نُشرت النسخة الإنكليزية من هذه الورقة في مشروع حلب، أيلول 2016: zaens83/yl.tib//:sptth. تتضمن هذه النسخة العربية بعض الإضافات والتوسعات. نقلها إلى اللغة العربية الكاتب نفسه. خالص الشكر لياسين الحاج صالح على استجابته لتساؤلاتي عن موضوع الورقة، والحكم شعار لمراجعته وتحريره، وصديقي صلاح الجيلاني للتدقيق اللغوي والاقتراحات الصائبة.

العالم كبنية سياسية نافية

مفهوم ياسين الحاج صالح عن المنفى

”طوال أكثر من عامين ونصف أردنا، سميرة وأنا، أن نتجنّب المنفى والسجن معًا. بعد أكثر من ثلاثين شهرًا على بداية الثورة صرّت أنا في المنفى، وبعد ثلاثة وثلاثين شهرًا صارت هي سجينًا“².

مقدمة: محطات عن الحاج صالح

أدّى نزوح ملايين السوريين بُعيد الانتفاضات العربية إلى بروز ظاهرة المنافي الجماعية السورية. رأينا مصداق ذلك في بلاد الجوار: الأردن ولبنان وتركيا وصولًا لألمانيا. وإذا أردنا تتبّع معالم هذه الرحلة، فإننا سنصادف لا محالة كتابات ياسين الحاج صالح الذي شهد اندلاع الثورة السورية شهودًا خاصًا. لذا يعتبر ما يكتبه جامعًا لمشاهد كثيرة ذاق بنفسه مرارة أكثرها، وخصوصًا تناوله لظاهرة المنفى في ضوء ما تعرّض له هو والمحيطين به. تُعدُّ كتابات ياسين الحاج صالح الآخذة في الظهور عن المنفى من أولى الكتابات التي تناولت مناقشة هذا الموضوع في ضوء تلك الانتفاضات العربية، فتصدّرت كتاباته مترجمةً تجربة السجن جنبًا إلى جنبٍ مع عدة تجارب (سورية) أخرى كالتهجير القسري والاحتلال بموازاة تجربة المنفى، ليصبح معنى المنفى متصلًا بمعاني النفس والوطن والحرية³. قضى ياسين ستة عشر عامًا في السجون السورية من عام 1980 إلى 1996، بين سجن حلب المركزي وسجن عدرا وسجن تدمر المعروف بوحشيته. ومع بداية هذا القرن، لعب الحاج صالح دورًا نشطًا في إعادة تعريف دور “المثقف العام” خلال عمله في الصحافة والترجمة⁴.

ممن اعتنى بحياة الحاج صالح وإنتاجاته الفكرية المتعلقة بالمسألة السورية فراس مسوح في رسالة الماجستير الخاصة به، حيث يعطي نظرةً عامة عن حياة ياسين الحاج صالح وإنتاجاته الفكرية المتعلقة بالمسألة السورية،

2 ياسين الحاج صالح، «درب إلى المنفى»، الحوار المتمدن، 7/2/2014، شوهد في 11/12/2019، في: tib://sptth.wkuol63/yl

3 ياسين الحاج صالح، «الحرية: البيت، السجن، المنفى... العالم»، أوراق، الجمهورية، 25/3/2016، شوهد في 11/12/2019، في: xOIKKL2/yl.tib://sptth

4 Firas Massouh, “Searching for Salvation: Yassin al-Haj Saleh and the Writing of Modern Syria” (MA, Australia, The University of Melbourne, 2015), 10.

واضحًا مساهماته الثقافية في إطار أكبر داخل الفكر العربي المعاصر⁵. ويبرهن مسوح على أن الحاج صالح لديه نقدٌ إنسانيٌّ ونموذجيٌّ كسبيلٍ لممارسة فاعليته ومسؤوليته الاجتماعية⁶، فهو يسعى لعدم تطبيع الافتراضات المتفشية في المجتمع حول السلطوية والطائفية في تاريخ سوريا المعاصر من خلال أعماله الثقافية والخطابية "في سبيل توسيع آفاق ما هو مُنخِلٌ وما هو حقيقيٌّ"⁷. كما ناقشَ مسوح الانتاجات الفكرية والأعمال العامة التي قام بها الحاج صالح في المنفى، لكنه لم يوضِّح مفهومَ المنفى لدى الحاج صالح.

على صعيدٍ آخر، يُحلِّل سون هاوبوله الفيلم الوثائقي "بلدنا الرهيب" ليناقد قضايا الثورة والمنفى ومحو التمثيلات البصرية في سوريا والشرق الأوسط⁸. ويختبر هاوبوله دور المثقفين كـ "رموزٍ ثورية" وأعمالهم خلال الثورات والثورات المضادة، ليوضح دور الحاج صالح في الثورة السورية كقيادة فكرية نابعة من تاريخه النضالي وإنتاجاته العلمية التي تُشجِّع "العملَ الجمعي والتأمل، والذي يهدف بدوره إلى تغيير الخيال الاجتماعي وتجهيز الظروف الاجتماعية للثورة"⁹. كما يُجادل هاوبوله حول كون المنفى يدفع الأفراد إلى نقد الذات ويبيِّن كيف أنَّ المنفى والهزيمة دفعا الحاج صالح لإنتاج انتقادات اجتماعية راديكالية للدولة والإسلاموية والحدثة¹⁰، لكنه كسابقه أيضًا لم يوضح فهم الحاج صالح للمنفى بعينه.

فلم تزل الأدبيات الأكاديمية مفتقدةً مفهومًا واضحًا للحاج صالح عن المنفى. ومن تلك الجهة، تُساهم هذه الورقة البحثية بإبراز فهم الحاج صالح لظاهرة المنفى التي لاحقت الانتفاضات العربية، لتضيف إلى المحصول الأكاديمي الذي يُناقش مساهماته في المجالات الثقافية والسياسية العربية.

تُمثِّل تجربة المنفى جزءًا من النسيج الاجتماعي والحياة السياسية في سوريا، مما يجعل عملية النفي (-exile ment) جدية بأن تُعطي نظرة تحليلية بُنيويةً حول الثورة السورية. ومن هذا ينبغي أن نعرِّج أولًا على فهم الحاج صالح للمنفى من خلال كتاباته، والذي كان من أول معطياته هو عدم الاكتفاء بالتنبُّه إلى مكان المنفيين، بل يُصبح سؤالنا من أين أتوا وكيف أصبحوا كذلك ضمن الأسئلة الجديرة بالأخذ في الاعتبار. في الحقيقة، للمنفى عند الحاج صالح تجليات عدَّة. ففي اللغة العربية، المنفى: هو اسم مكانٍ من الفعل 'نفي'. وبنظرةٍ أشمل، فإن دلالة تلك الكلمة هي "سلب شيءٍ ما". ولطالما استخدمَ الحاج صالح كلمة "منفى" بناءً على هذا التصور اللغوي ليقصد بها أيَّ فعلٍ ينفي فعلًا آخر، مع وجود علاقة قسرٍ وإجبارٍ أو إبعادٍ وعزلٍ تُصاحب فعلَ النفي المُشار إليه. فالنفي بالنسبة للحاج صالح هو فعلٌ عنفٍ ينتج عن بنيةٍ سياسيةٍ نافية.

وفي مصطلحات الحاج صالح، نفيُّ الشخص يعني سلبه حريته وحقوقه. بناءً على ذلك التصور، يُمكن القول أنَّ المنفى ليس فقدان الوطن والابتعاد عنه، وإنما اندثار مرجعيات شخصٍ ما تتدرج أيضًا في مدلولات "المنفى"،

5 Massouh, "Searching for Salvation: Yassin al-Haj Saleh and the Writing of Modern Syria."

6 Massouh, 10.

7 Massouh, 96.

8 Sune Haugbolle, "Moving through the Interregnum: Yassin al-Haj Saleh in the Syrian Revolution," Middle East Journal of Culture and Communication 8, no. 1 (2015): 13-36.

9 Haugbolle, 18.

10 Haugbolle, 30.

يجادل إدوارد سعيد أن تجربة المنفى تدفع المرء إلى التفكير فيها مما يؤدي إلى نقد الذات، انظر: إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى ١، ترجمة ثائر ديب (بيروت: دار الآداب، 2004)، ص 117.

وكذلك العيشُ كـ'أسمر' في مجتمع يُهيمن عليه الفكر الأبيض الكولونيالي يعدُّ نفيًا لهذا الشخص، وكونك مُجبرًا لتؤدي خدمةً عسكرية إلزامية هو نفي لحريتك، ونحن بالكتابة عن المنفى نُحاول أن نلتمسَ سبيلًا لنفي هذا المنفى. ومثلما كان الوطن مُسببًا للمنفى، كون الشيء يُعرف بـضدّه ونقيضه، فنفي المنفى إذن يستوجب إعادة خلقٍ لما قد يكونُ 'وطنًا' بشكلٍ أو بآخر.

من خلال هذه الورقة، أركّز على فهم الحاج صالح لمصطلح 'المنفى'، مُستعرضًا فهمي لأرائه عن المنفى كفعل يسلب، أولًا، التاريخ عن طريق الأبد السياسي، ويسلب، ثانيًا، الحرية بطغيان السجن، ويسلب، ثالثًا، الوطن بالعزل والإبعاد بل وبالإجلاء للفراق والترحال، بواسطة سلطة نافية، حتى يصل بنا إلى أن يسلب، رابعًا، ما قد سلب سلفًا، أي السلب ذاته، خلال عمليتي الاستحياس والاستنفاء كمحاولات لـ'نفي المنفى'. واستنادًا إلى ذلك، أستعرضُ كيف يوضح الحاج صالح استقلالية تجربة المنفى وتبعيتها لغيرها من المُجريات في آن، وكيف يفرّق بين اللاجئ والمنفي. أختم الورقة ببيان كيف يُجادل الحاج صالح عن نهاية المنفى وكيف يفكر في 'العالم' كمنفى من جهة وكيف أصبح المنفى عالميًا من جهة أخرى.

أهدف بهذه الورقة إلى المساهمة في تمثيل تجربة المنفى من خلال تسليط الضوء على مفهوم ياسين الحاج صالح للمنفى، بإلقاء النظر على معالجة نظرية ومقاربة عملية لتجربة لا تقتصر فقط على السوريين بل يعيشها الكثيرون الآن عقب الثورات العربية. تلك المفاهيم التي استوحاها الحاج صالح من الحالة السورية مُمتدّة ومُطرّدة على بلدان 'العالم الثالث' بصورٍ متفاوتة وإسقاطاتٍ مُتباينة، وخصوصًا البلاد العربية التي أخرجت انتفاضاتها وثوراتها مكونات حالتها الاجتماعية والسياسية وفضحت سياسات حكوماتها في تصيير الوطن منفيًا ومنسيًا ومُخفّيًا كما سأوضح.

الأبد السياسي كمنفى: نفي التاريخ عن طريق الأبدية الأسيديّة

يعني الحاج صالح بالأبد السياسي في سوريا أنه بقاء حكم الأسد في السلطة مدى الحياة عن طريق الطائفية والسُلالة والتّوريث¹¹. إذن فالأبدية السياسية في سوريا هي محاولة فرض حكم السُلالة الأسيديّة إلى الأبد¹². ولذلك، فهي تُمثل منفيًا من التاريخ والتغيير الاجتماعي والسياسي (أي سلبيًا لهما) لفرض حاضرٍ 'سياسي' اجتماعي دائم لا يتغيّر¹³. ففي هذا السياق يكون العنف السياسي وسيلة ضرورية للحرب على المستقبل وأيّ تغيير سياسي محتمل في سوريا¹⁴.

فالأبدية إذًا هي إلغاء للزمن ومحاولةً لهروب من المستقبل بتثبيت الحاضر والتخلص من كل من يسعى للتغيير

11 ياسين الحاج صالح، الثورة المستحيلة: الثورة، الحرب الأهلية، والحرب العامة في سورية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017)، ص 85.

12 المرجع نفسه، ص 87.

13 ياسين الحاج صالح، «الأبد كمنفى من التاريخ»، أفكار، الجمهورية، 16/4/2018، شوهد في 11/12/2019، في: <http://sptth://q7cl843/yl.tib>

14 المرجع نفسه، ص 89؛ انظر:

سواءً كانوا أفرادًا أو حركاتٍ سياسية أو مؤسسات. ومن هنا، فالموت نفسه لا ينفي تلك الأبدية السياسية؛ لأن النظام السياسي يحاول إنتاج نفسه بأية حال. "يموت الأب، فيرثه الابن، فتدوم السلالة، ويسود الأبد"¹⁵. طبقًا لهذا النمط من الحكم، تُنفى السياسة وتمتنع ممارستها، فتصبح الأعمال السياسية ممنوعة وممنوعة أيضًا¹⁶. في هذا المجتمع، تُجمد الديمومة اللازمة لأي حياةٍ سياسية، مما يعني نفيها، وبهيمن الروتين السياسي على الواقع وتفقد السياسة معانيها، فـ"سوريا الأخرى، اللاأسدية، غير موجودة وغير ممكنة الوجود"¹⁷. من هذه الناحية، فالسوريون منفيون سياسيًا، بمن فيهم مؤيدو النظام الأسد لأنهم نفوا فاعليتهم الأخلاقية إضافةً إلى مفاهيم السياسي¹⁸.

لذلك تمثل الثورة السورية انقطاعًا للأبدية وتفككًا لمنفى التاريخ، وتُعدُّ محاولةً لدخول التاريخ بعد أكثر من أربعة عقودٍ من انتفائه. وستحقق الثورة أهدافها إن خلقت ضميرًا سياسيًا ووضعت حدودًا وفرضت ضوابطًا على الحاكمين. فالسياسة غير ممكنة في الحكم الأبدي صاحب السلطة المطلقة¹⁹. فبإندلاع الثورة التي كان رهانها تفكيك سلطة النظام المطلقة، يصير نظام النفي ذاته منفيًا وتفقد الدولة الأسدية استقلالها وتوحدتها بالتاريخ، ساعيةً للبقاء كطرفٍ سياسي، ليس الوحيد، على الساحة السورية التابعة للثورة²⁰.

رغم ذلك، فمنفى النظام المذكور سابقًا يُغيّر منفى أغلبية السوريين بعد الثورة ولا يمكن مقارنتهما. فلم تعد الحرية المطلقة لتشكيل 'السياسة' في سوريا بأيدي النظام الأسد وحده، فـ"دولة الأسديين صارت في منفى من التاريخ هي ذاتها"، من تاريخها الأبدي²¹. يُحتم فقدان الدولة الأسدية سيادتها ودخولها إطارًا تاريخيًا تغييرها سياسيًا واجتماعيًا مع الوقت؛ وهو ما جعل الثورة تاريخية لأنها كسرت الأبدية الأسدية وأرغمتها أن تكون مؤقتة²².

يربط الحاج صالح بين الأبدية السياسية والإبادة الجماعية (الجينوسايد)؛ فلا أبد سياسي بلا إبادة للمعارضين وخلق 'مجتمع متجانس' لا تحكمه السياسة²³. فكما أن الأبد السياسي هو حرب على المستقبل، فالإبادة هي حرب على تغيير الحاضر ومن يحاول التغيير في 'أرض المباد' فهي تأييدٌ للحاضر بمعنى أو بآخر²⁴. ساهم في نفي السياسة، مع الأبد والإبادة، طائفية النظام. فالإبادة "هي استمرار للطائفية كصناعة أو ابد [أي طوائف] بوسائل قاتلة جمعياً"، والطوائف تشكيلات إبادية من صنع النظام الأسد ليست سابقة عليه²⁵. جاء ذلك عبر خصخصة

15 الحاج صالح، «الأبد».

16 مايكل يونغ وياسين الحاج صالح، «انتصار نظام الإبادة السياسية»، مركز كارنيغي للشرق الأوسط، 2017/8/12، شوهد في: <https://www.tib.tib.net/yl.tib//:sptth/Qh48dP2/>، 2016/12/12.

17 الحاج صالح، الثورة، ص 87.

18 الحاج صالح، «الأبد».

19 الحاج صالح، الثورة، ص 61.

20 الحاج صالح، «الأبد»؛ انظر:

Simon Mabon, "Sovereignty, Bare Life and the Arab Uprisings," Third World Quarterly 38, no. 8 (August 3, 2017): 1782–99.

21 الحاج صالح، «الأبد».

22 المرجع نفسه؛ لم تفقد الدولة الأسدية سيادتها مع الثورة بل فقدت القدرة على إعادة إنتاج نفسها ودخلت تحت الحماية الروسية والإيرانية.

23 ياسين الحاج صالح، «الأبد، الطوائف كأوبد، والإبادة»، أفكار، الجمهورية، 10/10/2019، شوهد في 16/1/2020، في: <https://bit.ly/2Tr9SpX>

24 ياسين الحاج صالح، «أرض المباد: حيث لا صفح ولا وعد»، أفكار، الجمهورية، 9/1/2020، شوهد في 16/1/2020، في: <https://www.tib.tib.net/yl.tib//:sptth/2Pwqet2/>

25 الحاج صالح، «الأبد، الطوائف كأوبد».

الدولة وتطيف شديد لأجهزتها الأمنية²⁶. جاءت الثورة السورية في هذا السياق لتكون من أجل الجمهورية، ضد الدولة المخصّصة التي تأخذ من نفي السياسة قاعدةً للحكم ومن نفي التاريخ مبدأً عامًا²⁷. ربما سيطفي تحليل فوكو لعلاقات القوى في عصر النازية واتخاذ العنصرية كمنطقٍ للسلطة بُعدًا آخر لتحليل الحاج صالح للطائفية والأبدية والإبادة في سوريا كمنفى من السياسة²⁸. فالعنصرية، كما يراها فوكو، لا تقتصر فقط على العرق الاجتماعي (ethnicity) أو حكم السلالة، إنما هي منطقٌ تعمل السلطة من خلاله لتُشكّل المجتمع وتهيئّه ليكون مبنياً على الفوارق الاجتماعية الأبدية 'المصطنعة'²⁹. في الفقرات القادمة أناقش بُعدًا آخر للمنفى في فكر الحاج صالح ببيان كيف يمثل المعتقل السياسي والعزل الاجتماعي أبعادًا في 'مركّب نفي' ترأسه 'سلطة نافية'.

المعتقل السياسي والنفي: العزل والإبعاد بواسطة سلطة نافية

قبل أن أناقش كيف يضع الحاج صالح تجربة السجن بموازاة تجربة المنفى لأوضح مفهومه للمنفى داخل سوريا وخارجها، أبينّ جزئيًا فهمه للحرية أولاً لارتباطه بفهمه العام للمنفى والاستنفاء. يرى الحاج صالح أنّ الحرية تحيلُ إلى التغيير الدائم والخروج المستمر والحركة الدائبة. فالحرية هي "موقفٌ نشطٌ ينجح إلى الخروج من كل وضع أو نظام، وإلى الخروج بصورٍ مختلفة، الخروج على الخروج"³⁰. فالحرية بالتالي مضادة للاستقرار والتوقف والثبات والجمود. فالخروج من الوطن أو التقاليد أو النفس أو الدين قد تكون أفعالًا في سبيل الحرية التي تتحقق بشرط أن يكون لهذه الأفعال تأثير على النفس لتغييرها مستقبلًا؛ فليس أي خروج هو فعل حرية، فـ"في النهاية نحن لا نخرج من نفوسنا إلى نفوسٍ غيرها (ذاكرتنا ومخيلاتنا ورضائنا المكوّنة...)"، لكننا نغيّر نفوسنا ذاتها، نظامها، فكانه صارت لنا نفوس جديدة، بهياكلٍ جديدة للذاكرة والتخيل والحساسية، وبسجلٍ خبرات ممكن جديد"³¹.

ولهذا، فالخروج من النفس بتغييرها هو فعلٌ تحرّري وشرطٌ للحرية. فـ"الخروج بعيدًا عن النفس وكسر الإيقاع المعتاد... يمكن أن يكون تجربة مُغيّرة ومحرّرة جدًا بقدر ما يمكن لمطابقة النفس [أي عدم تغييرها أو توافقها مع التقاليد الاجتماعية] أن يكون سجنًا خانقًا"³². بالنسبة للحاج صالح، قد تصبح النفس الإنسانية سجنًا لأصحابها؛ فنحن دائمًا ما نحملُ سجونًا بدواخلنا. يُحتمل أن تكون العادات والتقاليد والمعتقدات سبيلَ تقييدٍ واحتجازٍ بشكلٍ أو بآخر. تبعًا لذلك، تغيير النفس هو طريقٌ للمعايشة والتوسع والترحاب بأفكار وعادات غريبة عنّا، والترحاب بالآخرين على الأخص. وكما أنّ النفس وثيقة الصلة بالبيت والسجن والحرية، فإن تكونَ النفس بيتًا يعني أن تحتوي الآخرين المختلفين عنها بداخلها، فـ"البيتيّة المفتوحة تعني أن نذهب إلى الغير ويأتي إلينا الغير، فيلنقي

26 انظر: ياسين الحاج صالح، «القصة السورية: حقائق واقعية»، الحوار المتمدن، 26/4/2019، شوهد في 16/1/2020، في:

YAvwnt2/yl.tib//:sptth

27 المرجع نفسه؛ انظر أيضًا: ياسين الحاج صالح، «الفكرة الجمهورية والثورة السورية»، أفكار، الجمهورية، 25/2/2014، شوهد في 16/1/2020، في:

<https://bit.ly/2Nws1il>

28 Michel Foucault, Society Must Be Defended: Lectures at the College de France, 1975-76 (Picador, 2005).

29 Foucault, 254.

30 الحاج صالح، «الحرية».

31 المرجع نفسه.

32 المرجع نفسه.

توسّع بيتنا بتوسّع بيتهم، وتتكوّن لنا بيوت مشتركة، ولا يبقى الغيرُ غَيْرًا“³³. هذا كله يستدعي الحركة والتنقل وتغيير الأماكن. فكما تحيلُ الحرية إلى التغيير، تكفُّ الحركة عن كونها فعلَ حرية حين تكون حركة تكرارية“ على الدروب ذاتها إلى الأماكن ذاتها، وبخاصة حين يكون ذلك مسلًا إكراهيًا“³⁴. وعندما نكون مُرغمين على خوض غمار مسلٍ ما، نحتاج أن نواكبُه لنحيا. هذا النوع من المواكبة يكونُ تحرُّريًا بطريقة تدريجية، كإغتنام كوننا منفيين من أوطاننا أو معتقلين بداخلها واتخاذها سببًا للحرية والعيش باختلاف.

السجن هو مساحة للنفي الحقوقي والسياسي³⁵. هو وسيلة عزل وإبعاد 'النفَاوة' من البشر، أي النِّفَايات، الخارجين على المعايير السياسية والاجتماعية والدينية السائدة في المجتمع إثر تمرُّدهم وخروجهم الفوضوي على النظام القائم داخل البلاد³⁶. المنفى قرين السجن، فيه يُعزل المتمرِّدون ويُنفون خارج البلاد. فعل النفي هذا، في السجن والمنفى، هو فعل عنف بالأساس³⁷.

يصبحُ الوطن (أي البيت السياسي) سجنًا استنادًا إلى الحاج صالح إذا كنا ممنوعين من الخروج منه ومقيمين به جبرًا، ولذلك نُسمى سجناء³⁸. وإذا كنا محبوسين خارج هذا البيت وممنوعين من العودة إليه، فهو يصبح سجن في هيئة منفى ومنفى في هيئة سجن. ف"الحبس خارج البيت هو التشريد... ومنع العودة إليه هو النفي"³⁹. المنفى هو سلبٌ للحرية وفقدانٌ للبيت ونفيٌ لخروجٍ نعرف أننا يمكن أن نعود منه⁴⁰. فسلب الحرية في المعتقل هو نفيها، والطرد خارج البلاد وسلب حرية العودة هو النفي كذلك. اقترن فعل النفي بإبعاد الخارجين على المعايير السائدة بوجود سلطات احتلال تنفي المتمرِّدين خارج البلاد المحتلة. ولذلك، يستبطن فعل النفي صعوبة تذليل المسافات وعسر التواصل بين 'الداخل' و'الخارج'⁴¹. ما هو 'داخل' وما هو 'خارج' هو صنع السلطة وتناجها وليس سابق عليها⁴². فالسجن هو محصلة قرب المسافة والنفي. هو داخل الداخل، بينما المنفى هو خارج هذا الداخل. "السجن نفي إلى داخل معزول يمنع الخروج منه، مثلما المنفى سجن في خارج يمنع الرجوع منه"⁴³. بعد زوال النفي كإجراء عقابي إبّان قيام الدولة القومية الحديثة، صار السجن هو الإجراء العقابي بديل المنفى ومعادله⁴⁴. يجمع كلا التجربتين نفي الحرية والعزل الاجتماعي والحجر السياسي.

الدولة السورية الحديثة دولة نافية بما أنها دولة حرب، أي تستقي من الحرب والإبادة سياسة لها. دولة حرب على

33 المرجع نفسه.

34 المرجع نفسه.

35 ياسين الحاج صالح، «في المنفى والوطن والعالم، والكتابة»، أفكار، الجمهورية، 19/12/2019، شوهد في 16/1/2020، في: <https://bit.ly/30p7Vvw>

36 المرجع نفسه.

37 المرجع نفسه.

38 الحاج صالح، «الحرية».

39 المرجع نفسه.

40 المرجع نفسه.

41 الحاج صالح، «في المنفى».

42 المرجع نفسه؛ انظر أيضًا:

Timothy Mitchell, "The Limits of the State: Beyond Statist Approaches and Their Critics," American Political Science Review 85, no. 1 (1991): 77-96.

43 الحاج صالح، «في المنفى».

44 المرجع نفسه.

السياسة والمستقبل⁴⁵. فعل النفي ليس فقط هو فعلٌ عنفٍ وإكراهٍ كما تقدّم الذكر، بل هو جزءٌ في 'مُرْكَبِ نفي'. مركب النفي هذا هو جزءٌ من 'بنية سياسية نافية'. تنبع الدولة على رأس هذه البنية النافية. تمارس الدولة فاعليتها النافية ليس فقط بنفي التاريخ، بل بالاعتقال والمنفى وخلق ظروف التهجير الجماعي والإبادة⁴⁶. ولذلك، بالنسبة للحاج صالح، تشتمل تجربة المنفى في السياق السوري على عدة تجارب مثل الاعتقال والتغييب القسري والنفي خارجًا والاعتصاب و'المنسى'.

التهميش كمنفى: سوريا كمنفى ومنسى ومخفى ومغتصب

كما يضع الحاج صالح المنفى بموازاة السجن، يضعه أيضًا بموازاة عدة تجارب سورية مجاورة مثل التغييب القسري والاعتصاب و'المنسى'⁴⁷. تتواتر هذه التجارب وتتوالد، ويربطهم التهميش السياسي والاجتماعي.

المنسى هو العيش مَنسِيًّا لا شَانَ لكَ ولا يذكركَ أحد⁴⁸. هو "وضع المحرومين من الذكر العام، من لا يتكلم عنهم أحد أو يشعر بهم أحد، بينما هم يتألمون أو يموتون. المنسى، بالخصوص، حال من يهانون ويعذبون ويقتلون في سياقات عامة، دون شهود ودون رواية ودون تكريم"⁴⁹. كما أن السجن والمنفى هما نتاج علاقاتٍ سياسية بالأساس، فالمنسى هو وضع سياسي ناتج عن "سياسة إنساء وحرمان من القول والحضور، أو فرض المجهولية على قطاع من السكان أو على جميعهم"⁵⁰. المنسيون هم المنفيون "داخل بلدانهم، خارج الذكر العام والمجال العام، لا يُعترف بهم ولا يروون، ولا يفكر بهم أحد، ولا تُسجّل سيرهم ولا تُروى قصصهم، ولا تُسمع أصواتهم، ولا تُحفظ صورهم"، هم المُهمَّشون نتاج أنظمة التجاهل والمهانة والإذلال⁵¹. سوريا هو موطن وبلاد نسيان، فهي منسى. يضرب الحاج صالح بضحايا مجزرة حماة عام 1982 مثالًا للمنسيين؛ فهم قُتلوا مرتين، مرة في المجزرة والأخرى عبر نسيانهم من الذاكرة السورية ومن الذكر العام، فلا شهادات ولا تاريخ ولا ذكر لهم⁵². فالنسيان، كالنفي، فعل عنفٍ منظمٍ وسياسي.

الاعتصاب أقسى من التعذيب، هو تعذيبٌ فوق تعذيبٍ وإذلالٌ محض. الاعتصاب يمثل نفيًا لذات المغتصبة ونفيًا لها من أسرتها وجماعتها، فهو انهيارٌ لحدودها وانتهاكٌ لخصوصيتها بالإقامة داخل جسدها واحتلاله⁵³. هو فعلٌ قتلٍ وجزءٌ من مُرْكَبِ إبادة، يماثله التغييب⁵⁴.

التغييب هو نفي الناس بالخطف "واغتيال حضورهم وعلاقتهم بعالمهم واتصالهم به، وتعزيز ذلك بالإنكار أو

45 المرجع نفسه؛ الحاج صالح، الثورة، ص 98.

46 الحاج صالح، «في المنفى».

47 المرجع نفسه.

48 ياسين الحاج صالح، «المنسى السوري... المنساء السورية»، الحوار المتمدن، 20/1/2013، شوهد في 16/1/2020، في:

wIzdXF2/yI.tib//:sptth

49 المرجع نفسه.

50 المرجع نفسه.

51 المرجع نفسه.

52 المرجع نفسه.

53 ياسين الحاج صالح، «الحب والتعذيب والاعتصاب، والإبادة»، أفكار، الجمهورية، 28/4/2018، شوهد في 61/1/2020، في:

<https://bit.ly/2u8HMoA>

54 الحاج صالح، «في المنفى».

فتجربة الاستخباس تُحدِّد من أذى السجن وتُبطل بعضًا من مفعوله وتُساعد السجين على التحرر⁶³. يكون هذا التحرر من سجونٍ داخليةٍ تحملها معنا أينما ذهبنا؛ كالتقاليد والعادات والأعراف الاجتماعية المهيمنة على أفكارنا الشخصية⁶⁴. هذا التحرر هو "تحررٌ داخلي، انعتاق، يُقوينا في مواجهة الحبس كتنقيدٍ خارجي"⁶⁵. ولذلك يفتح السجن مجالاً لإعادة التفكير في ما نحن عليه وما نريد أن نكون، فالاستخباس هو "صراعٌ نخوضه في السجن ضد السجن" وما يحويه من ظروفٍ لتحديها والبحث من خلالها على أنوار الحرية⁶⁶. فالحاج صالح نفسه تغيَّر في السجن وأعاد التفكير في أفكاره السياسية، بالأخص في الشيوعية: "تخلَّيتُ عن الشيوعية في وقت ما من ثمانينيات القرن العشرين... صرْتُ على نفورٍ عميقٍ من كل مذهبٍ مغلقةٍ ومن كل مَنزِعٍ يقينيٍّ ودوغمائيٍّ، ومن انتهازية أصحاب العقائد ولاأخلاقيتهم العميقة"⁶⁷. كان الحاج صالح يستخبس بالقراءة، ومشاهدة التلفاز ولعب الورق والنوم إن أمكن⁶⁸. أسوأ المعتقلين السياسيين في وجهة نظره هم من لم يغيروا أنفسهم، أو بالأحرى من لم يفتنوا من السجن فرصةً لإعادة تشكيل من هم وما هم عليه من أفكارٍ ومعتقدات. فالحاج صالح تحرَّرَ وفي السجن كانت ثورته، حسبما يُكرِّر⁶⁹.

يخطو المنفيُّ خطوَ السجين، فيفعل مثله قدر المستطاع إن أُتيحت الظروف. فعندما يتخذ المنفيُّ مَنْفاهُ كَبَيْتٍ من نوعٍ آخر ويجعله فرصةً لبدايةٍ مختلفةٍ ليست مُقيَّدةً بشرطِ العودة، فإنه 'يَسْتَلْجئُ' أي يتحول من كونه لاجئاً ناجياً فاراً من بلده مُنتظراً عودةً ما ليكون في حكم "اللاجئ المستقر"⁷⁰. الاستنفاءُ شبيه الاستلجاء⁷¹، فهو أهم ما يواجه المنفيُّ في بيئته الجديدة ويكون عبارةً عن "وصلٍ ما انقطعَ من الحياة، أو استئنافِ الحياة، أو ربما العمل على أن يكون اللجوءُ فرصةً لبدايةٍ مختلفة"⁷². بكلمات الحاج صالح، الاستنفاء هو "التمكُّن بصورةٍ ما من جعل ديارِ اللجوءِ وطنًا والمَلْجأَ بيتًا"⁷³. الاستنفاء يُبطل مفعول المنفى كغربةٍ ويجعلنا نافعين للبلدان الجديدة التي قديمنا إليها⁷⁴. ولذلك، باتخاذ المنفى كفرصةٍ جديدةٍ، يخوض المنفيُّ صراعاً جديداً بالإضافة إلى الصراعِ 'القديم' الذي تركه خلفه في وطنه ليستأنسَ البلد المضيف ولا يجعل نفسه عُرضةً لانتظارِ العودة للبيت أو للوطن لسنواتٍ غير معدودة⁷⁵. إضافةً إلى ذلك، فللمنفيين، مثل المعتقلين، نظامٌ زمنيٌّ خاصٌ يغيِّر المجرى 'الطبيعي' للأحداث؛ حتى أن اللاجئ، حسبما يُجادل الحاج صالح، يعيشُ في المؤقت

62 المرجع نفسه.

63 الحاج صالح، «في المنفى».

64 الحاج صالح، «الحرية».

65 الحاج صالح، «في المنفى».

66 Yassin al-Haj Saleh, "Freedom: Home, Prison, Exile...and the World," trans. Rana Issa, Yassin al-Haj Saleh, April 3, 2017.

67 ياسين الحاج صالح، بالخلاص، يا شباب! 16 عامًا في السجون السورية، (بيروت: دار الساقي، 2012)، ص 210.

68 المرجع نفسه، ص 204.

69 المرجع نفسه، ص 85.

70 الحاج صالح، «العيش».

71 أوضح كيف يفرق الحاج صالح بين اللاجئ والمنفي لاحقاً، وبناءً على هذا التصور يتم التفريق بين الاستلجاء والاستنفاء.

72 الحاج صالح، «العيش».

73 المرجع نفسه.

74 الحاج صالح، «في المنفى».

75 المرجع نفسه.

من الزمن، بعد انخلاعه من المكان وأصبح 'خارج المكان': "لنا في المنفى ماضيان نتعثر في التحرك بينهما. ماضينا قبل المنفى، وماضينا في المنفى"⁷⁶. فالماضي قبل المنفى يظهر كأنه زمن الحرية، ويكون الحاضر (أي حاضر المنفى وماضيه) حيرةً وقلقًا ويبدو المستقبل عودةً مأمولةً أو ضياعًا مستمرًا وانخلاعًا تامًا⁷⁷. وتجربة المنفى هي ليست فقط الإقامة في مكانٍ غريب (ليس فقط مختلف) بل أيضًا "إقامةً في الزمن الفاصل بين ما قبل وما بعد، في المؤقت"⁷⁸. هذا المؤقت يتمثل في عيش الانتظار، انتظارًا عودةً ما والعيش على أمل هذه العودة التي قد لا تأتي أبدًا. في هذا السياق، ينفي المنفي منقاه بعملية الاستنفاء.

قبل الخوض باستفاضةٍ في ماهية عملية الاستنفاء وأمثلتها، بالأحرى لفهمها، نُكمل الحديث عن معنى الحرية في فكر الحاج صالح، الذي على صلةٍ وثيقةٍ بمعاني النفس والسجن والعالم والمنفى وبالطبع الاستنفاء. فالخروج من البيت من أجل الحرية هو فعلٌ حريةٍ رغم قسوته. فالمنفى في حد ذاته قد يكون نواةً للحرية مثل ما كان أثرًا للسعي إليها، شريطةً أن يصحبه تغييرٌ في النفس وتطورٌ في الفكر وتنميةٌ للذات. فالحركة إحدى تمثيلات الحرية "من حيث أنها خروجٌ على (منوال)، وليس خروجًا من (مكان) فقط... لا نكون أحرارًا حين نخرج، إلا حين لا نخرج بالصورة ذاتها في كل مرة، أي حين نخرج على خروجنا أيضًا". فالحركة لا بد أن تكون متحركةً في حد ذاتها، أي متغيرةً، ليست حركةً من روتينٍ إلى روتين، فمن "يخرج ويخرج على خروجه... يتحرر"⁷⁹. هذا الخروج قبل أن يكون خروجًا من البيت (من مكانٍ ما) يكون خروجًا من النفس ذاتها، من عاداتها ومألوفاتها⁸⁰. بهذا يكون الخروج خروجًا وتغييرًا.

جديرٌ بالذكر أنّ هذا النوع من الحرية الذي دائمًا ما يرنو إليه الحاج صالح يُخالف الحرية الكولونيالية والتي لا تتحقق إلا بالتوسع على حساب الغير أو مصحوبةً بالفردانية التامة وإهمال حق الغير⁸¹. وعلى العكس من ذلك، نجد أنّ إحدى مكونات هذه الحرية في رؤية الحاج صالح هي العمل على اتساع أنفسنا لتسع الآخرين وتقبلهم. بهذا يكون البيت الواحد بيوتًا للآخرين، ويتأتى من النفس الواحدة ترحابٌ ليسع آخرين مختلفين⁸².

في هذا الإطار، ينفي المنفي منقاه بالاعتراف به وقبوله كمنفى أولًا ثم التفكير في كيفية التعامل معه والبناء عليه والحركة من خلاله. فـ "إنكار المنفى يُمكن أن يأخذ شكل انعزالٍ عن المجتمع الجديد في انتظار 'عودةٍ إلى البيت'، قد تتأخر كثيرًا أو لا تأتي أبدًا. لكنه يمكن أن يأخذ شكل 'دوبان' في المجتمع الجديد، ومحوٍ تامٍ للماضي" وكلاً منهما لا يمكن أن يكونا تجربةً مُحَرِّرةً، بل هي "تجربةٌ تبعييةٌ والتحاق"⁸³. ويبقى السؤال إذن، كيف يمكن للمنفي أن يكون تجربةً حرةً وتحررًا؟⁸⁴ وما دور الاستنفاء في تمهيد الطريق لهذا النوع من التجارب؟

76 المرجع نفسه؛ الحاج صالح، «الحرية».

77 المرجع نفسه.

78 الحاج صالح، «العيش».

79 الحاج صالح، «الحرية».

80 المرجع نفسه.

81 المرجع نفسه.

82 المرجع نفسه.

83 المرجع نفسه.

84 للقراءة عن احتمالية أن تكون المساحات المهمشة كالمنفى بوتقة لتحرر سياسي نظامي انظر:

Joe Turner, "(En)Gendering the Political: Citizenship from Marginal Spaces," *Citizenship Studies* 20, no. 2 (February 17, 2016): 141–55.

الاستئناف هو درب حرية. يكون المنفى تجربة تحريرية إذا اتخذ المنفى فرصة للتعلم ولترتق أخفاقات قديمة. ولا يحصل هذا ابتداءً إلا بمقاومة نظام المنفى ذاته (الزمني والمكاني) الذي هو نتاج ما سلب من حرية اختيار البقاء، وبالتبعية فهو نتاج ما فرض قسراً بالخروج والحرمان من العودة. في المنفى، نخرج على خروجنا هذا بالانخراط في المجتمع الجديد وبناء 'تقاليد' جديدة، والمساهمة في خلق بيوت مغايرة تُعوضنا عما فقدناه وأخيراً توسيع آفاق تفكيرنا واهتماماتنا السياسية⁸⁵. فكما كانت ثورة الحاج صالح في السجن وبه حصل تحرره، كذلك المنفى يكون مكاناً للثورة فوق الثورة واستيزاد نوع تحرر نفسي وفكري يفوق أقصى ما يؤمله المعتنق بهذا الفعل المسمى 'تحرر'. هذا التحرر إذن يكون بالانفصال نسبياً عن النفس القديمة ومحاولة الارتقاء أخلاقياً، "التمسك بالنفس القديمة وفاءً للوطن هو الخيانة الحقيقية. نحتاج في المنفى، كما في السجن، إلى أن نغير أنفسنا، كي نتحرر"⁸⁶. وهكذا يحدث الاستئناف، فقط عندما نعطي معانٍ جديدة للمنفى.

يعطي الحاج صالح كذلك أمثلة شخصية للاستئناف تعمل كمضادات نوعية ضدَّ سمة تجربة المنفى⁸⁷. منها على سبيل المثال: تكوين صداقات جديدة أو استرجاع صداقات قديمة في البلد المضيف. فالصداقات تُقلل من أعجمية المكان وغربته وتمحو بعضاً من وحشته، كما أنها تُساعد على استيطان الأماكن الجديدة وتكوين هويات ضمن هذه السياقات⁸⁸. وينفي الحاج صالح منفاً أيضاً عن طريق العمل، فالكتابة بمثابة جسرٍ يصله بسوريا وبالسوريين. لأن كتاباته بمثابة وطنه المختار، يحمله على ظهره أينما حل، إليه ينتمي ومنه يكون⁸⁹. وثمة تريباق آخر وهو تعلم لغة بلد المنفى. فتعلم لغة المكان يُخفف وحشته وينزع بعضاً من صفاته كمنفى⁹⁰. مثال آخر هو محاولة تملك 'منزل'؛ ليكون بيئة خاصة يرجع إليها الفرد لتستقر نفسه وتطمئن. إنه هذا الفضاء الشخصي الصغير جداً الذي يذهب إليه الشخص ويخلو به مع ذاته، ليألفها وتألفه، ويكون نقطة مرجعه وحيزه الخاص الذي به يبني (ويسترجع) ذكرياته ويلم نفسه فيه⁹¹. يمدنا المنفى أيضاً بمساحة لإعادة التفكير في معتقداتنا السياسية ونظرتنا للأحداث الجارية عن بعدٍ بطريقة شاملة نسبياً. المنفى أيضاً قد يكون باباً لتفكيك أفكار متعلقة بالتاريخ والسياسية والتقدم⁹².

جديرٌ بالذكر أن عمليتي 'الاستحباس' و'الاستئناف' بالنسبة للحاج صالح ليستا مجرد آليات تكيف (coping mechanisms) مع الوضع السائد، بل أداتين يتعرف بهما المرء على وضعه الجديد ويستخدمهما لإعادة تشكيل من هو وما يحب أن يرى نفسه عليه. هما أيضاً غير محدّدتي العوالم، فكل شخص يستحبس ويستنفي على طريقته الخاصة. يجب التنويه أيضاً أن عمليتي الاستحباس والاستئناف هما رهناً لبنيتهم الاجتماعية؛ فمن موانع الاستحباس النفي لسجونٍ مثل تدمر وصيدنايا وغيرها، لشدة قسوتهم. كذلك في ظروف اللجوء باللغة القسوة، كالعيش في خيمة أو معسكر لجوء لا يُعطي للمساحة الشخصية أي فرصة، فيكون بذلك المنفى استمراراً لتجربة 'الاقتلاع والنفي'⁹³.

85 الحاج صالح، «الحرية».

86 المرجع نفسه.

87 الحاج صالح، «عن منافي السوريين».

88 المرجع نفسه.

89 المرجع نفسه.

90 المرجع نفسه.

91 المرجع نفسه.

92 الحاج صالح، «الأبد».

93 الحاج صالح، «العيش».

العيش 'حول' المنفى ليس فيه: استقلالية المنفى وتبعيته في آن واحد

كلمة 'منفى' غير كافية لتصف حال الأغلبية من اللاجئين السوريين⁹⁴. فالمنفى، مثلما السجن، لا يمكن حصر مدلوله على مكان ما بزمان معين، فتجسيد تجربة المنفى تعيد تشكيل رابطة الزمان والمكان عندما تتراكم تواريخ من الخوف والقمع على جسد شخص ما أينما يغدو ويروح. لا أعني بهذا القول أن "المنفى" له استقلاليته وأنظمته الوظيفية والمكانية المختلفة وهو منعزل عن السياق الاجتماعي المنبثق منه، بل على العكس، فكتابات الحاج صالح تُسيّس (politicizes) وتؤرّخ (historicizes) تجربة المنفى. نعم، هو يدّعي خصوصية التجربة وأثرها الشخصي، لكنه لا يؤصلها؛ ولذلك، فالمنفى هو تجربة -مهما تفاوت معيار دقتها- تعترى الشخص فيعرف نفسه بها. هي حالة منع وحرمان، لا يمكن اقتصارها على المستوى الشخصي، بل هي متعددة الجوانب يلعب السياق السياسي والاجتماعي دوراً أساسياً في إنتاجها، وهي متمركزة في وقت ومكان معين.

عبر تحليل الهيكلية الاجتماعية للانتفاضة السورية التي أنتجت المنافي، لا يجعل الحاج صالح المنفى أو الوطن الأصلي تجربة رومانسية أو مثالية⁹⁵، فطريقة تحليله للمنفى تجعله ينظر إلى أسبابه وعواقبه في هيكل واحد على حدّ سواء. ورغم أنه يركز على تجربته الشخصية والحسية، فهو يجعلها في إطار عام للنسيج الاجتماعي المكوّن لها.

المنفى، أي الغربة القسرية، في وجهة نظر الحاج صالح هو حالة تمزق بينية، تتلاقى بين طبيّاتها حالة المنفى والبلد المحطّم سويّاً⁹⁶. فداخل سوريا وخارجها متماهيان، "نعيش في 'الخارج'، لكن لنا في 'الداخل' أعباء يعانون أوضاعاً أقسى من وضعنا: الخطف والاعتقال، وانقطاع الأثر"⁹⁷. فبينما يعيش المنفيون خارج سوريا، فتجاربيهم الشخصية متمركزة حول العيش خارجها بالنظر للخلف وبالداخل السوري، أي 'حول' منفاهم وليس 'فيه'⁹⁸. هذا يجعل استقلالية المنفى شبه مستحيلة. وكذلك لا يقتصر على جعل المنفيين فقط منفيين وحسب، بل هم جزءاً لا يتجزأ من الحياة السياسية السورية. فبين هنا وهناك، لا ينفصل السوريون عن الأحداث السياسية داخل بلادهم، إضافة إلى الحال السياسية في المجتمع المضيف. فصراع السوريين مزدوج ومركّب من الصراع في المجتمع الجديد التاريخي وصراع في المجتمع القديم الأبدى، في سوريا. رغم ذلك، فالمنفى "تجربة مستقلة... بحكم كونها تجربة انفصال وفك ارتباط مع حياة سابقة"⁹⁹.

لكن هذا المزيج من استقلال تجربة المنفى عن الوطن النافي وتعذر استقلالها في نفس الوقت "يشكّل جوهر التجربة وهو منبع قلقها وعدم استقرارها"¹⁰⁰. إذا التفتنا على سبيل المثال لإدوارد سعيد فسوف نصادف

94 الحاج صالح، «عن منافي السوريين».

95 Liisa H. Malkki, "Refugees and Exile: From 'Refugee Studies' to the National Order of Things," Annual Review of Anthropology 24, no. 1 (October 1, 1995): 495–523, <https://doi.org/10.1146/annurev.an.24.100195.002431>.

96 الحاج صالح، «عن منافي السوريين».

97 المرجع نفسه.

98 المرجع نفسه.

99 ياسين الحاج صالح، «في المنفى التركي: مفارقات وسوء تفاهم»، ورقة غير منشورة.

100 المرجع نفسه.

تقريره لكون المنفي يظل غريباً على الدوام من محيطه¹⁰¹ والمنفيون يشعرون باختلافاتهم مهما حققوا من نجاحات¹⁰². فالعيش في المنفى يجمع المتناقضين: الارتباط بالوطن والاستقلال عنه معاً؛ مما يجعل هذه التجربة مليئة بعدم الاستقرار والآيقين.

اللاجئ والمنفي: أهلية المنفيين وفعاليتهم

قبل الخوض في تمييز الحاج صالح بين اللاجئ والمنفي، نعرِّج على سؤال الفاعلية الإنسانية. يُنظر إلى الفاعلية ليس أنها معاكسة للبنية، بل مكونة لها. فـ"وجود البنى ينطوي على الفاعلية" ولا ينفيها¹⁰³. ولا يمكن النظر إلى الفاعلية كونها متشابهة في كل وقت وحين، بل تختلف حسب بنيتها الاجتماعية ونطاقها السياسي. لذلك فالتركيز على الفاعلية يجعل التغيير الاجتماعي ممكناً¹⁰⁴، ونفيها المستمر يعني تأييد الحاضر. ومن هنا فسؤال الفاعلية محوري وأساسي في كتابات الحاج صالح، وهو واضح في تفريقه بين اللاجئ والمنفي.

ارتبط مصطلح 'المنفي' قديماً بالاحتلال، وكان يقم كعقوبة قانونية لعزل المتمردين على الأحوال السائدة خارج بلدانهم. وإبان قيام الدولة الحديثة، انتفى المنفي كعقوبة قانونية وصار السجن بديلاً عنه¹⁰⁵. ثم آل الأمر عقب الحرب العالمية الثانية إلى أخذ مصطلح اللجوء في الظهور بشدة كمصطلح قانوني لحماية المشردين والمطرودين، وصار 'المنفي' حقلاً للأدب والشعر لأولئك المطرودين¹⁰⁶. فالتميز الأساس، يمكن القول، بين اللاجئ والمنفي في دراسات اللجوء هو أن اللجوء مصطلح قانوني مؤصل في الدولة القومية الحديثة في أوروبا، فهو نتاج دولة القرن العشرين، بينما المنفي فلا أساس قانوني له.

كون اللجوء مصطلح قانوني يجعل له بنية قانونية وسياسية واجتماعية وحقوقية تخص قوانين وواجبات اللجوء والحماية وغيرهم¹⁰⁷. وبالطبع ليس هذا للقول أن قبل الحرب العالمية الثانية لم يكن هناك 'لاجئين'، بل إن البنية القانونية للجوء كما هي الآن لم تكن موجودة قبل ذلك الوقت¹⁰⁸. إضافة إلى ذلك، اكتسب اللجوء دلالة سياسية تقتزن بحاجة المشردين من بلادهم إلى المساعدات الإنسانية العاجلة مما صاحبه نشوء بعض المؤسسات التي تعمل على قضايا اللاجئين إلى الآن، أبرزها المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، وغيرها¹⁰⁹.

101 سعيد، تأملات حول المنفي ومقالات أخرى 1، ص 126.

102 المرجع نفسه، ص 127.

103 وليم هـ. سيول الابن، «نظرية في البنية: الثنائية والفاعلية والتحول»، ترجمة ثائر ديب، عمران، المجلد 7، العدد 28 (2016)، ص 136.

104 سيول الابن، «نظرية في البنية: الثنائية والفاعلية والتحول»؛ للمزيد انظر:

Mustafa Emirbayer and Ann Mische, "What Is Agency?," American Journal of Sociology 103, no. 4 (January 1, 1998): 962–1023. .

105 الحاج صالح، «في المنفى».

106 انظر: سعيد، تأملات حول المنفي ومقالات أخرى 1، ص 117؛

Malkki, "Refugees and Exile."

107 Malkki, 497.

108 Malkki, 498; Rieko Karatani, "How History Separated Refugee and Migrant Regimes: In Search of Their Institutional Origins," International Journal of Refugee Law 17, no. 3 (January 1, 2005): 517–41.

109 للمزيد عن كيف ارتبط اللجوء بوسائل عدة للتحكم في المجتمع ككل وليس فقط اللاجئين وكيف اقتترنت كلمة اللجوء بدلالات عسكرية قبل الخمسينات من القرن المنصرم قبل أن ترتبط لاحقاً بخطابات المساعدات الإنسانية والتنمية ودول العالم الثالث، انظر: Malkki, "Refugees and Exile."

يضيف الحاج صالح إلى ذلك شرطي المكان والزمان والاختيار، للتفريق بين اللاجئين والمنفى¹¹⁰. إذ كلما ابتعدت المسافة وطالت المدة بعيدًا عن الوطن، كلما صار اللاجئ منفيًا أكثر، والعكس صحيح. فاللجوء "هو الطورُ الباكرُ من تجربة المنفى"¹¹¹. وكل منفي يبدأ بلجوءٍ لكن ليس كل لجوءٍ ينتهي بمنفى. فاللاجئ، بالنسبة للحاج صالح، يبحث عن أقرب المناطق أمانًا له ويتحسّن فرص العودة، بينما المنفي يختار منفاه الذي يرى به حياةً أفضل ومستقبلًا أكثر استقرارًا وبقينًا، فكل الملاجئ التي لا تتأهلها الدولة النافية تلبّي مطلب النجاة¹¹².

شرط المنفى هو صعوبة تذليل المسافات، أي البعد. فطالما اقترن المنفى بالخارج الذي تصعب الرجعة منه. "المرء يلجأ إلى أقرب ملجأ آمن، إلى تركيا: لسكان المناطق الشمالية من سوريا، وإلى الأردن: لسكان المناطق الجنوبية، وإلى لبنان: لسكان حمص ودمشق، وحين يذهب إلى أبعد فإنه يتجاوز وضع اللاجئ المضطر الذي يتحين فرص العودة إلى وضع المنفي الذي يخطط لحياته حيث يفضل أن يكون. فكلما طال بنا الأمد بعيدًا عن موطننا، أو كلما أزمنا الاقتلاع... وبعُدت المسافة، انقلب حالنا من لاجئين إلى منفيين"¹¹³. إذن، بالنسبة للحاج صالح، في المنفى اختيار وتفضيل بين قريب وبعيد؛ "المنفى اختياري بقدر ما، اختياري ضمن شرط الإكراه إن جاز التعبير. تركيا ملجأ، ألمانيا منفي. لا نأتي إلى ألمانيا بحثًا عن أمان، بل عما يتجاوز ذلك من حياة يمكن التخطيط لها والإمساك بها"¹¹⁴. وعليه، يمكن القول أنّ في المنفى فاعلية أكثر منه في اللجوء. هذا التمييز بين المنفي واللاجئ غرضه عقْلنة الظروف وتمكُّك التجارب التي يمر بها المطرودون (السوريون) من بلادهم¹¹⁵.

لأول وهلة، قد يبدو من الغريب القول أنّ المنفى اختياريًا متضمنًا شرط الإكراه، كقول أنّه مستقلًا متضمنًا شرط التبعية كما تقدم. فنحن أمام تجربة تجمع التناقضين. على أيّ حال، ستختلف المفردات والتحليل بناءً على موضعنا وإلى أيّ الأطراف ننظر ومن أيهم نبدأ التحليل. في تناولي لكتابات الحاج صالح، هدّفي ليس فقط الاشتباك مع المفردات وكونها تصف التجربة، بل كيف يصل الحاج صالح إلى هذه المفردات وإلى أين توصلنا إن اتخذناها كلمات مفتاحية لفهم الوضع الحالي وعقْلنته.

إعادة صياغة من هو اللاجئ وربطه بالمنفى هو استحداث سردية تخالف السرديات 'الدولية' المتناولة لقضايا اللاجئين¹¹⁶ التي طالما انطوت على الأمانة والمساعدات الإنسانية وحوكمة الحدود، مما يمثل ليس فقط انحيازًا لصراعهم بل محاولة لتطويع الأدوات المعرفية لعقْلنة تجاربهم من وجهة نظرهم. فمنظوره هذا يعدّ خروجًا عن "المنظور القومي"، أي رؤية الظواهر الاجتماعية من وجهة نظر الدولة القومية، التي اعتادت العلوم الاجتماعية تناول قضايا اللاجئين من خلاله¹¹⁷.

والأهم، هذا المنظور الذي يطرحه الحاج صالح هو بمثابة كسر صورة المنفي أو اللاجئ كضحية. عمل الحاج

110 الحاج صالح، «في المنفى».

111 المرجع نفسه.

112 المرجع نفسه.

113 المرجع نفسه (التوكيد في الأصل).

114 المرجع نفسه.

115 المرجع نفسه.

116 Malkki, "Refugees and Exile."

117 Malkki; Andreas Wimmer and Nina Glick Schiller, "Methodological Nationalism and beyond: Nation-State Building, Migration and the Social Sciences," *Global Networks* 2, no. 4 (2002): 301-34.

صالح على إنشاء البيت الثقافي السوري 'هامش' في اسطنبول، وكان أحد أهداف 'هامش' كسر صورة السوري كضحية في المجتمع التركي والمساهمة في جعل السوريين مرئيين في المجتمع التركي¹¹⁸. الاستئناف كنجربة هي من وجهة نظر المنفيين، كما الاستحباب من وجهة نظر المعتقلين. وتكفي الاتفاقية الأوروبية التركية في شباط 2016 لمواجهة أزمة اللاجئين مصداقا لتمثيل الخطاب الذي ينظر للاجئين كخطر وكضحايا مسلوبين الفاعلية. فالاتفاقية الأوروبية تلك حدت من حركة اللاجئين داخل تركيا وقطعت طريق لجوئهم في أوروبا¹¹⁹. معاملة اللاجئين كضحايا منزوعي الذاتية ومفقودي الأهلية يماثله أيضاً استخدامهم كتهديد للدول المجاورة لإبرام اتفاقات جيوسياسية. إضافة إلى الاتفاقية التركية-الأوروبية، طلب أردوغان من أوروبا الدعم قَبيل عملية 'بيع السلام' بحجة خلق منطقة حدودية آمنة مع سوريا، وأيضاً لمواجهة الانتقادات الدولية لعملية المنشودة مهدداً أنه سيفتح على أوروبا أبواب اللاجئين¹²⁰.

وعلى ذلك، فتفريق الحاج صالح بين اللجوء والمنفى هو من وجهة نظر المنفيين واللاجئين أنفسهم، من موضعهم، كسبيل لإبراز فاعليتهم وبيان أهليتهم التي 'تنفيها' ظروف تهجيرهم من جهة، وظروف المجتمع المضيف والخطاب الدولي المنوط بالمساعدات الإنسانية والإغاثة تجاههم من جهة أخرى. إضافة إلى ذلك، هذا ليس فقط موقف نظري يساعد الحاج صالح في عقلنة حال المنفيين، بل موقف تكويني عن النظر للمنفى وكيف يمكن التأمل في أعماله.

نَفْيُ الْمَنْفَى بِنْفِي الْوَطْنِ:

يطور الحاج صالح مساعي 'نفي المنفى' ليُبْرِهن على أن القومية ليست حلاً لتجربة المنفى. ف"إسرائيل التي نفت المنفى اليهودي نفت الفلسطينيين من أرضهم وعملت على نفيهم من التاريخ. ودولنا الركيكة تنفي قطاعات من سكانها فتحرمهم من الجنسية"¹²¹. فالصهيونية التي نفت المنفى اليهودي أوجبت المنفى الفلسطيني، فنفت نفي منفاها بإيجادها منفي آخر¹²². لكن يمكن نفي المنفى نفيًا غير وطني بالنسبة للحاج صالح عن طريق نفي الوطن نفسه والاستئناف "يمكن أن يجري 'نفي المنفى' عبر نفي الوطن، أو نفي التمركز حول الوطن الذي هو السمة

118 الحاج صالح، «المنفى التركي».

119 للمزيد عن الاتفاقية التركية الأوروبية وكيف تسلب السوريين فاعليتهم السياسية، انظر:

Feyzi Baban Rygiel Suzan Ilcan, Kim, "Playing Border Politics with Urban Syrian Refugees. Legal Ambiguities, Insecurities, and Humanitarian Assistance in Turkey," movements. Journal for Critical Migration and Border Regime Studies 3, no. 2 (November 3, 2017):

120 "أردوغان محذراً الأوروبيين: لن نتحمل عبء المهاجرين السوريين وحدنا"، يورونيوز، 23/12/2019، شوهد في 17/1/2020، في: <https://bit.ly/30taLQ8>؛ «أردوغان يهدد أوروبا مجدداً بـ«فتح الأبواب» أمام اللاجئين السوريين»، دويتشه فيله عربي، 13/9/2019، شوهد في 17/1/2020، في: [Xp5bga3/yl.tib//:sptth](https://xP5bga3/yl.tib//:sptth)؛ هذا ليس مقتصرًا فقط على النظام التركي، بل يبذروا خطابًا مماثلاً لأنظمة شمال أفريقيا عمومًا نظرًا للاتفاقات الأوروبية المتعلقة بالهجرة والتحكم بشواطئ المتوسط، مما يعزز حجة الحاج صالح بأن العالم بيئة نافية، انظر:

Anne Koch, Annette Weber, and Isabelle Werenfels, "Profiteers of Migration? Authoritarian States in Africa and European Migration Management," Research Paper (Berlin: German Institute for International and Security Affairs, July 2018).

121 الحاج صالح، «في المنفى».

122 المرجع نفسه.

المعرفة للتفكير في المنفى¹²³. فالنفي الجذري للمنفي يشترط نفي الوطن.

الاستنفاء هو نفي غير وطني للمنفي، ولنا أن نقول: هو نفي للمنفي في المنفى وهو نفي للوطن كذلك. ولهذا النوع من النفي غير الوطني أمثلة عدة: فيمكن نفي الوطن عن طريق نفي القومية بعدم اعتبارها الكيان المعرف للأماكن والبشر، كما في 'المنهجية القومية' التي تأخذ من الدولة القومية الحديثة نظامًا طبيعيًا حول العالم لا يرقى إليه الشك لتفسير الظواهر الاجتماعية وإنتاج المعرفة¹²⁴. أدورنو على سبيل المثال اتخذ من الكتابة وطنًا له، فنفي موطنه الأصلي وحيده¹²⁵.

دعا الحاج صالح إلى إعادة التفكير في الثورة السورية؛ فبدلاً من أن تكون فقط عبارة عن مراحل زمنية بانتهائها تنتهي الثورة، يمكن فهمها كطبقة من الممارسات والتجارب الشخصية، وتقليد يبقى حياً ومتجدداً، وتراث ذو معنى ممتد عبر أجيال وحياة مُعاشة¹²⁶. بنفس المنطق، يحدث النفي غير الوطني للمنفي بإعادة التفكير في ماهية الوطن. فقد ظهرت بعض الدراسات عن أن الوطن هو عبارة عن ممارسات، فأينما حللت صنعتَ وطنًا إن أردت¹²⁷. هذا واضح في بعض الدراسات الفلسطينية التي تتجاوز الأسر النظري المنوط بـ'حق العودة' لتنظر كيف يصنع المهجرون الفلسطينيون أوطانهم في بيئاتهم، وكيف يخلقون 'فلسطين' صغيرة بالخارج¹²⁸. في الدراسات الخاصة بالبيئة الحضرية في الحقل الأكاديمي الخاص بدراسات الهجرة، ظهرت دراسات تدعو إلى محاولة فهم أفعال المهاجرين بجميع أطيافهم جنباً إلى جنب مع سكان البلد الأصليين وتشكيلهم للمكان المتواجدين فيه، وبهذا لا يتم أخذ العرق أو القومية كنقطة انطلاق، وإنما تكون البيئة الحضرية التي تتشاركها جميعاً هي مركز البحث¹²⁹.

ويمكن التفكير، نظرياً، بأن الوطن بدايةً هو افتراضٌ يسبق واقعه الاجتماعي، وأن إعادة تعريف 'الوطن' على المستوى الشخصي تُسائل السرديات القومية والهويات الجامدة مما يجعلها أيضاً إحدى طرق الاستنفاء¹³⁰. وتظل ماهية الوطن رهناً للسياق الاجتماعي له وكيف يُعرّف مجموعة ما وطنهم، لاجئون كانوا أم مهاجرون أم حتى سكاناً

123 المرجع نفسه.

124 المرجع نفسه؛ سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1، ص 22-121.

Wimmer and Glick Schiller, "Methodological Nationalism and beyond: Nation-State Building, Migration and the Social Sciences."

125 الحاج صالح، «في المنفى»؛ سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1، ص 131.

126 ياسين الحاج صالح، «ما هي الثورة السورية»، أفكار، الجمهورية، 14/11/2019، شوهد في 17/1/2020، في:

<https://bit.ly/2RDUJPI>

127 Michael Jackson, At Home in the World (Duke University Press, 2000).{\i}At Home in the World (Duke University Press, 2000

128 Michelle Obeid, "Home-Making in the Diaspora Bringing Palestine to London," in A Companion to Diaspora and Transnationalism (Blackwell Publishers, 2013).

129 Nina Glick Schiller, Ayşe Çağlar, and Thaddeus C. Guldbrandsen, "Beyond the Ethnic Lens: Locality, Globality, and Born-Again Incorporation," American Ethnologist 33, no. 4 (2006): 612-33; Ayşe Çağlar and Nina Glick Schiller, Migrants and City-Making: Dispossession, Displacement, and Urban Regeneration. (Durham: Duke University Press, 2018).and Urban Regeneration.} (Durham: Duke University Press, 2018

130 Sara Ahmed, Claudia Castañeda, and Anne-Marie Fortie, Uprootings Regroundings: Questions of Home and Migration, 1st ed. (Berg Publishers).

أصليين لم يُجبروا على مغادرة بلدانهم، وكيف يصنعوه في حياتهم اليومية¹³¹.

نهاية المنفى: عالم المنفى ومنفى العالم

جديرٌ بالذكر أنه بالنسبة للحاج صالح ما يشهده السوريون ليس فقط مقتصرًا عليهم؛ فالمسألة السورية مسألة عالمية حيث أنّ "الديمقراطية في أزمةٍ في مختلف أنحاء العالم، وسوريا هي ضحية هذه الأزمة"¹³². بكلماتٍ أخرى، الصراع السوري هو خير دليل على أن العالم برمته يتم 'سَرَيَنَتَه': "فالعالم سوريا كبيرة... وتغيره يعني تعميم [المصير] الرهيب الذي أصابنا، أي في سوريا، في العالم كله"¹³³. في سوريا "أربعة من دول مجلس الأمن الخمسة تُشارك بقوات عسكرية... وسبقتها إليها إيران ولبنان والعراق، ولحققتها تركيا بعد التدخّلين الأميركي والروسي. وإسرائيل دومًا في ضربات مباشرة أو بتأثير غير مباشر... وشاركت الجهادية السنيّة العالمية في الصراع بمجاهدين قديموا من 80 بلدًا، أو من 100 بلد بحسب تقديرات أخرى... وجاء الجهاديون الشيعة من بلدان أقل عددًا، لكن بمشاركة مباشرة وتنسيق من قبل المركز الشيعي العالمي، إيران"¹³⁴.

قد تكون الحرب في سوريا عالمية، لكن بالتأكيد ظهر العالم هناك بشكل حربي. الحربية في سوريا عالمية لأنها لا تقتصر على دول فقط بل مليشيات ومجموعات مدعومة من دول خارجية ومنظمات ما دون الدولة، بطريقة متشابكة ومعقدة¹³⁵. انخرط العالم بأشكالٍ مختلفة في الصراع السوري وتجزّأت سوريا وصار بها خمس احتلالات¹³⁶. "كثيرٌ من داخل سوريا خارجها، وكثير من خارج سوريا داخلها. هناك سوريا اليوم في تركيا (فوق 12% من السوريين)، في لبنان والأردن (البلدان الشقيقتان الجاران الذين يُعامل فيهما اللاجئون السوريون أسوأ معاملة)، في ألمانيا، وفي كل مكان. وهناك روسيا في سوريا، وإيران في سوريا، والأممية الجهادية العالمية في سوريا، وتركيا، وحزب البي كي كي، وحتى بشار الأسد"¹³⁷. الدولة الخاصة ونظامها الإبادي مَحْمِيٌّ بحراب أجنبية ويعاد تأهيلها لإطفاء الشرعية على نظامها الأسدي مجددًا، فالصراع ليس محليًا بل عالميًا، ومحاولات إعادة الشرعية لنظام الأسد تمر أمام أنظار العالم¹³⁸. والنظام الدولي شريك في جعل سوريا كَمَنْسَى قبل أن تكون مَيَدَانًا لهذه المعركة الحربية التي مَسرحها في الأساس العالم، وسوريا إحدى تمثيلات¹³⁹. فتحوّل الصراع السوري إلى "صراع فوق وتحت سوري، إقليميّ وطائفي" وعالمي¹⁴⁰.

131 Sara Ahmed, "Home and Away: Narratives of Migration and Estrangement," International Journal of Cultural Studies 2, no. 3 (December 1, 1999): 329–47.

132 يونغ والحاج صالح، «انتصار».

133 ياسين الحاج صالح، «رسائل إلى سميرة 5»، أفكار، الجمهورية، 2017/8/13، شوهد في 2016/12/12، في: sptth://

Amsod43/yl.tib

134 ياسين الحاج صالح، «سورية والعالمية الحربية الأولى»، أفكار، الجمهورية، 5/9/2018، شوهد في 17/1/2020، في:

<https://bit.ly/30wvsLI>

135 المصدر نفسه.

136 المصدر نفسه؛ الحاج صالح، «ما هي الثورة السورية».

137 ياسين الحاج صالح، «رسائل إلى سميرة 4»، أفكار، الجمهورية، 6/8/2017، شوهد في 17/1/2020، في: sptth://.tib

o7J0i83/yl

138 الحاج صالح، «ما هي الثورة السورية».

139 الحاج صالح، «سوريا والعالمية»؛ الحاج صالح، «المنسى السوري».

140 الحاج صالح، «ما هي الثورة السورية».

قُتلت الثورة وقُتلت. هذا كله، جعل المشكلة السورية قضيةً عالمية اسمها 'القضية السورية'¹⁴¹. التفكير في عالمية سوريا أدى بالحاج صالح إلى إعادة التفكير في 'الشمال'، أي غرب أوروبا، حيث بينات الاستقبال التي يلجأ إليها السوريون كمنفى وجعله جزءاً هاماً في 'مركب المنفى' إلى جانب الدولة النافية والمنفيين أنفسهم. ف'الشمال' هو ما شكّل العالم في صورته اليوم، عبر تجارب منها الاستعمار وبناء المؤسسات الدولية "والقانون الدولي الحالي الذي ينظم علاقات بين دول... تعرض استعدادات نفيّة وإباديّة تبدو متأصلة فيها جوهرياً، ومنها فيما يخصنا رعاية الاستثناء الإسرائيلي واستثناءات أخرى"¹⁴². هذا الجفاء في التعامل مع قضايا اللاجئين تنصّل من مسؤولية تشكيل العالم كما هو عليه الآن، فالسما لا تُمطر لاجئين! كان هذا مُحفِزاً لإعادة النظر في النظام العالمي ككل، في العالم أجمع¹⁴³.

هذا الربط وثيق الصلة بين العالمي والمحلي عند الحاج صالح لا يتوقف فقط عند المستوى السياسي، بل نراه أيضاً واضحاً في تصورات لما هو 'شخصي' وتناوله إياه¹⁴⁴: "يرتبط خطف سميرة وفراس¹⁴⁵، و'اختفاؤهما'... بثلاثة قوى وحشية: نظام الأسد الفاشي، والتنظيمات الإسلامية العدمية، والنظام العالمي الأوليغارشي [أي حكم الأقلية]. حرية أحبابي ومستقبل العالم أمران مترابطان. علينا أن نروّض وحوش الدولة والدين والعالم، أونؤنسيتها، إذا كُتّا نتطلع إلى مستقبل أقل قسوة"¹⁴⁶. لذلك فإن رسائل الحاج صالح لزوجته سميرة الخليل المخطوفة في دوما منذ ديسمبر 2013، تُبرز جزءاً لا يُستهان به من فكره الحالي، وهي دليل على تقاطع السياسي مع الشخصي في الحديث عن الثورة السورية¹⁴⁷. وبالعودة إلى الباحث مسوح، فإن كتابات الحاج صالح عن السجن والمنفى (أو بالأحرى السجن/المنفى) لا تُقرأ ككتابات شخصية¹⁴⁸، بل هي "دعوة للسوريين لمحاكات بعضهم الآخر وإعادة

141 المرجع نفسه.

142 الحاج صالح، «في المنفى».

143 المرجع نفسه؛ الحاج صالح، «الأبد».

144 بينما يوظف الحاج صالح الشعار النسوي القائل بأن «الشخصي سياسي والسياسي شخصي» كأداة تحليل في معظم كتاباته، نجد آثاراً لهذا النوع من التحليل في متبني الفكر الماركسي كأداة تحليل مثل جون كلارك فيما يسميه 'التحليل الهيكلية' 'conjunctural analysis'، وأيضاً في الكتابات التي تعالج تشكيل المكان والهوية في سياق الهجرة بما يُعرف بالدراسات العابرة للقوميات 'transnational studies' والفكر 'المتعدد المستويات' 'multiscalar thinking'. يتقاطع منطق الحاج صالح، برأيي، مع كلاً منهم. للمزيد انظر:

John Clarke, "Conjunctures, Crises, and Cultures: Valuing Stuart Hall," Focaal 70 (December 1, 2014): 113–22; Çağlar and Glick Schiller, Migrants and City-Making; Thomas Faist, "Transnationalization in International Migration: Implications for the Study of Citizenship and Culture," Ethnic and Racial Studies 23, no. 2 (January 1, 2000): 189–222; Faranak Miraftab, "Displacement: Framing the Global Relationally," Framing the Global: Entry Points for Research, January 1, 2014, 37–50. no. 2 (January 1, 2000).

145 أقدم ملثمون من تنظيم «جيش الإسلام» على خطف الناشطون السوريون الأربعة، رزان زيتونة وسميرة الخليل ووائل حمادة وناظم حمادي، في دوما عام 2013. للمزيد من التفاصيل حول خطفهم وغيرهم، انظر على سبيل المثال: ياسين السويحة، «عام الخطف»، عيون، الجمهورية، 2016/8/22، شوهد في 2016/12/15، في: 5rLYPY2/yl.tib//:sptth

146 يونغ والحاج صالح، «انتصار».

147 ياسين الحاج صالح، «رسائل إلى سميرة»، الجمهورية، شوهد في 2016/12/12، في: -u83/yl.tib//:sptth

Feht؛ مثال آخر يبرهن كيف يُحلل الحاج صالح تقاطعية السياسي والشخصي هو تعليقه على استشهاده عبد الباسط الساروت، انظر: ياسين الحاج صالح، «عبد الباسط الساروت: مسار ثورة في مسار تائر»، أفكار، الجمهورية، 2016/7/18، شوهد في 2016/12/12، في: 45ECbE2/yl.tib//:sptth؛ «زمان عبد الباسط»، عيون، الجمهورية، 2016/6/13، شوهد في:

2016/12/12، في: .ljMR9E2/yl.tib//:sptth

148 لمثال آخر، انظر:

كتابة تاريخهم جماعياً واستعادة ما يعنيه أن تكون جزءاً من مواطنة عالمية حديثة¹⁴⁹.

في تحليله، يستعمل الحاج صالح 'العالم' كوحدة تحليل متخيلة تُساوي وحدات 'المنفى' و'الوطن'¹⁵⁰. فتصوّر العالم كمنفى كبير يُحتم علينا التفكير في أوجه الظلم المختلفة حول العالم بأسره، التي تنبثق منها سوريا كمجرد مثال. أوجه الظلم هذه من منظور الحاج صالح متصلة بل ومعتمدة على بعضها بعض. فذلك يمكن القول أنّ عالم المنفيين هو جزءٌ من منفى العالم وشبيه به¹⁵¹. بكلماتٍ أخرى، الأشخاص المنفيون موجودون في العالم الذي هو مفاهم أيضاً. فعالمنا الحالي هو منفى، سلبَ الجميع فيه حرّيته بطرق نسبية وامتيازية. يطابق هذا المنطق الوطن والمنفى على حدّ سواء: "الوطن هو العالم الذي هو المنفى أيضاً"¹⁵². فنحن "بلا وطن في العالم، وبلا منفى لأننا في العالم"¹⁵³. ف"مركب المنفى هو عالم اليوم" ووطننا هو العالم الذي هو مفانا أيضاً¹⁵⁴.

ربط القضية السورية بالعالم وبمصيره من جهة، وتقدير العالم كمنفى من جهة أخرى للسوريين وغيرهم بطرق متفاوتة يجعلنا جميعاً في منفى، في منفى لا يفنى إذا صح القول. شريطة فنائه هي تغييره ككل، أو تغيير جزءاً منه سعياً لتغييره ككل (إن جاز لنا تقطيعه من الأساس). فنأوه هذا كامن وحيثي، منطبق بداخله، مصيرياً بمصير ذواته وفاعليتهم. ولذلك، لا حلول محلية لمشكلات عالمية، وواجب على تفكيرنا وسياستنا أن يلاقيا عالمية العالم¹⁵⁵. مصير العالم كامن بداخله وليس خارجه، وطوباه مصاحبة له وكامنة وواقعية، ليست منفصلة ولا متعالية ولا خارجة عنه¹⁵⁶. إنه هنا والآن، ونحن جميعاً نُشكّله بأفعالنا اليومية: ف"لا بد من تغيير العالم في العالم"¹⁵⁷. يماثل هذا أيضاً قول الحاج صالح بأن تغيير سوريا يبدأ بتغيير العالم أجمع¹⁵⁸. باختصار، يرى الحاج صالح أن عملية التحرر متصلة ومتشابهة؛ العالمي يتداخل مع المحلي والمجتمعي يصاحبه الذاتي. هذا كله يجعل المنفى، كما يراه الحاج صالح، عالمي، حيث تتخرط قوى عالمية في تشكيله واستمراره.

خاتمة: المنفى كإقصاءٍ وتمهيش

يأخذ الحاج صالح على عاتقه تطوير نقد جذري تحرّري منحاز سياسياً وثقافياً، فهو يأخذ من قضايا الكرامة والعدالة مُنطلقه الأساس ويمركز أصحاب تلك القضايا خلال تمثيلهم ويبدأ بما قد يكون من وجهة نظرهم (وهو واحد منهم)¹⁵⁹. هذا واضح على سبيل المثال في شرحه للثورة السورية وبنيتها وما آلت إليه ونقده لأنواع معينة من التضامن معها إلى غير ذلك. ويظهر هذا بوضوح في فهمه للمنفى كبنية سياسية كما وضّحت، ليس مجرد

149 Massouh, "Searching for Salvation: Yassin al-Haj Saleh and the Writing of Modern Syria," 97.

150 الحاج صالح، «الأبد».

151 المرجع نفسه.

152 المرجع نفسه.

153 المرجع نفسه.

154 الحاج صالح، «في المنفى».

155 المرجع نفسه.

156 الحاج صالح، «الحرية».

157 المرجع نفسه.

158 الحاج صالح، «رسائل إلى سميرة ٥».

159 سامر مختار وياسين الحاج صالح، «ياسين الحاج صالح: نحن السوريون في موقع يتيح لنا النقد الجذري للعالم»، رصيف،

10/9/2016، شوهد في 17/1/2020، في: <https://bit.ly/2NA9Eco>؛ انظر: ياسين الحاج صالح، الثقافة كسياسة:

المنقون ومسؤوليتهم الاجتماعية في زمن الغليان، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2016).

تجربة، مما يجعلنا عندما نتكلم عن المنفى السوري، خارج البلد، فنحن نتحدّث عن نواة البلد ودواخلها، وعندما نتكلم عن سوريا فنحن نتكلم عن العالم.

أخذًا في الحسبان ما سلف ذكره، من أن كتابات الحاج صالح متشابكة ومتعددة الأوجه وأحيانًا مفتوحة المعاني. لذا يمكن استخلاص تعريف الحاج صالح للمنفى بصفة عامة أنه محاولات عدة للإقصاء والتهميش. هذه المحاولات هي نتاج 'بنية سياسية نافية'. في السياق السوري، هذه البنية ليست فقط إقصائية، بل إبادية. فعل النفي هو فعل عنفٍ بالأساس، سياسيُّ الجوهر. يشتمل مُرْكَبُ النفي هذا على البنية النافية والمنفيون ذاتهم وبيئات استقبالهم. والخلاصة أنّ للمنفي أشكالًا عدة في فهم الحاج صالح، تتشارك هذه الأشكال في أن سلب الحقوق والحريات قسرًا هو شيءٌ من منفيّ ما. نفي التاريخ عن طريق 'الأبد السياسي' يسبب نفيًا لحيوات الأشخاص السياسية والأخلاقية والحقوقية، والذي بدوره ينتهي إلى سلب الحريات والحقوق الأساسية والعزل الاجتماعي والحجر السياسي. يمكن التعامل مع هذه الحالة من النفي خلال عمليّتي الاستحباس والاستنفاء. المنفي ليس استثناءً، بل واقعًا 'طبيعيًا' لملايين البشر حول العالم. ونفي هذا المنفي يكون في نفي عالم اليوم.

- «اردوغان محذرًا الأوروبيين: لن تتحمل عبء المهاجرين السوريين وحدنا»، يورونيوز، 23/12/2019،
<https://bit.ly/30taLQ8> في: 17/1/2020
- «اردوغان يهدد أوروبا مجددًا بـ«فتح الأبواب» أمام اللاجئين السوريين»، دويتشه فيله عربي، 13/9/2019،
<https://bit.ly/3agb5pX> في: 17/1/2020
- «الكاتب والناشط السياسي ياسين الحاج صالح في المشهد»، بي بي سي عربي، 24/1/2017، شوهد في
[yUFljR2/yl.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2) في: 16/1/2020
- «زمان عبد الباسط»، عيون، الجمهورية، 2016/6/13، شوهد في: 2016/12/12، في: [.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2)
[ljMR9E2/yl](https://bit.ly/3UFljR2)
- الحاج صالح، ياسين. «أرض المباد: حيث لا صفح ولا وعد»، أفكار، الجمهورية، 9/1/2020، شوهد في
[2Pwqet2/yl.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2) في: 16/1/2020
- _____ . «الأبد كمنفى من التاريخ»، أفكار، الجمهورية، 16/4/2018، شوهد في 11/12/2019،
في: [q7cL843/yl.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2)
- _____ . «الأبد، الطوائف كأوبد، والإبادة»، أفكار، الجمهورية، 10/10/2019، شوهد في
في: [https://bit.ly/2Tr9SpX](https://bit.ly/3UFljR2)
- _____ . «الاغتياب والتغيب والغيب: نظرات في الديني السياسي»، الحوار المتمدن، 15/7/2019،
شوهد في 19/1/2020، في: [https://bit.ly/2NFKyIV](https://bit.ly/3UFljR2)
- _____ . «الحب والتعذيب والاعتصاب، والإبادة»، أفكار، الجمهورية، 28/4/2018، شوهد في
في: [AoMH8u2/yl.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2) في: 61/1/2020
- _____ . «الحرية: البيت، السجن، المنفى... العالم»، أوراق، الجمهورية، 25/3/2016، شوهد في
في: [xOIKKL2/yl.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2) في: 11/12/2019
- _____ . «العيش في المؤقت»، أفكار، الجمهورية، 2018/3/29، شوهد في 2019/12/12، في:
[4rO5cP2/yl.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2)
- _____ . «الفكرة الجمهورية والثورة السورية»، أفكار، الجمهورية، 25/2/2014، شوهد في
في: [https://bit.ly/2Nws1il](https://bit.ly/3UFljR2) في: 16/1/2020
- _____ . «القصة السورية: حقائق واقعية»، الحوار المتمدن، 26/4/2019، شوهد في 16/1/2020،
في: [YAvwnt2/yl.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2)
- _____ . «المنسى السوري... المنساة السورية»، الحوار المتمدن، 20/1/2013، شوهد في
في: [wlZdXF2/yl.tib//:sptth](https://bit.ly/3UFljR2) في: 16/1/2020
- _____ . «درب إلى المنفى»، الحوار المتمدن، 7/2/2014، شوهد في 11/12/2019، في: [://:sptth](https://bit.ly/3UFljR2)

_____ . «رسائل إلى سميرة 4»، أفكار، الجمهورية، 6/8/2017، شوهده في 17/1/2020، في: [.tib//:sptth](http://tib//:sptth)
o7J0i83/yl

_____ . «رسائل إلى سميرة 5»، أفكار، الجمهورية، 2017/8/13، شوهده في 2016/12/12، في: [//:sptth](http://:sptth)
Amsod43/yl.tib

_____ . «رسائل إلى سميرة 5»، أفكار، الجمهورية، 2017/8/13، شوهده في 2016/12/12، في: [//:sptth](http://:sptth)
Amsod43/yl.tib

_____ . «رسائل إلى سميرة»، الجمهورية، شوهده في 2016/12/12، في: Fehtu83/yl.tib//:sptth

_____ . «سورية والعالمية الحربية الأولى»، أفكار، الجمهورية، 5/9/2018، شوهده في 17/1/2020، في:
<https://bit.ly/30wvslL>

_____ . «عبد الباسط الساروت: مسار ثورة في مسار تائر»، أفكار، الجمهورية، 2019/7/18، شوهده في
45ECbE2/yl.tib//:sptth، في: 9102/21/21

_____ . «عن منافي السوريين، عن سوريا كمنفى»، حبر، 9102/5/31، شوهده في 9102/21/11، في: [//:sptth](http://:sptth)
8XSUAY2/yl.tib

_____ . «في المنفى التركي: مفارقات وسوء تفاهم»، ورقة غير منشورة.

_____ . «في المنفى والوطن والعالم، والكتابة»، أفكار، الجمهورية، 19/12/2019، شوهده في 16/1/2020،
<https://bit.ly/30p7Vvw> في:

_____ . «ما هي الثورة السورية»، أفكار، الجمهورية، 14/11/2019، شوهده في 17/1/2020، في: <https://bit.ly/2RDUJJP>

_____ . الثقافة كسياسة: المثقفون ومسؤوليتهم الاجتماعية في زمن الغليان، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات
والنشر، 6102.

_____ . الثورة المستحيلة: الثورة، الحرب الأهلية، والحرب العامة في سورية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات
والنشر، 7102.

_____ . بالخلاص، يا شباب! 61 عامًا في السجون السورية، بيروت: دار الساقى، 2102.

_____ . إدوارد. تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1، ترجمة تائر ديب. بيروت: دار الآداب، 4002.

_____ . «عام الخطف»، عيون، الجمهورية، 9102/8/22، شوهده في 9102/21/51، في: [.tib//:sptth](http://tib//:sptth)
5rLPHY2/yl

_____ . «عام الخطف»، عيون، الجمهورية، 9102/8/22، شوهده في 9102/21/51، في: [.tib//:sptth](http://tib//:sptth)
5rLPHY2/yl

سيول الابن، وليم هـ، «نظرية في البنية: الثنائية والفاعلية والتحول»، ترجمة ثائر ديب، عمران، المجلد 7، العدد 82 (9102).

مختار، سامر وياسين الحاج صالح. «ياسين الحاج صالح: نحن السوريين في موقع يتيح لنا النقد الجذري للعالم»، رصيف، 10/9/2016، شوهد في 17/1/2020، في: ocE9AN2/yl.tib//:sptth

يونغ، مايكل وياسين الحاج صالح. «انتصار نظام الإبادة السياسية»، مركز كارنيغي للشرق الأوسط، 2017/8/21، شوهد في: Qh48dP2/yl.tib//:sptth

الأجنبية

Ahmed, Sara. "Home and Away: Narratives of Migration and Estrangement." *International Journal of Cultural Studies* 2, no. 3 (December 1, 1999): 329–47.

Ahmed, Sara, Claudia Castañeda, and Anne-Marie Fortie. *Uprootings Regroundings: Questions of Home and Migration*. 1st ed. Berg Publishers, 2004.

Çaglar, Ayse, and Nina Glick Schiller. *Migrants and City-Making: Dispossession, Displacement, and Urban Regeneration*. Durham: Duke University Press, 2018.

Clarke, John. "Conjunctures, Crises, and Cultures: Valuing Stuart Hall." *Focaal* 70 (December 1, 2014): 113–22.

Emirbayer, Mustafa, and Ann Mische. "What Is Agency?" *American Journal of Sociology* 103, no. 4 (January 1, 1998): 962–1023.

Faist, Thomas. "Transnationalization in International Migration: Implications for the Study of Citizenship and Culture." *Ethnic and Racial Studies* 23, no. 2 (January 1, 2000): 189–222.

Foucault, Michel. *Society Must Be Defended: Lectures at the College de France, 1975-76*. Picador, 2005.

Haugbolle, Sune. "Moving through the Interregnum: Yassin al-Haj Saleh in the Syrian Revolution." *Middle East Journal of Culture and Communication* 8, no. 1 (2015): 13–36.

Ismail, Salwa. *The Rule of Violence Subjectivity, Memory and Government in Syria*. Cambridge, United Kingdom: Cambridge University Press, 2018.

Jackson, Michael. *At Home in the World*. Duke University Press, 2000.

Karatani, Rieko. "How History Separated Refugee and Migrant Regimes: In Search of Their Institutional Origins." *International Journal of Refugee Law* 17, no. 3 (January 1, 2005): 517–41.

Koch, Anne, Annette Weber, and Isabelle Werenfels. "Profiteers of Migration? Authoritarian States in Africa and European Migration Management." Research Paper. Berlin: German Institute for International and Security Affairs, July 2018.

Mabon, Simon. "Sovereignty, Bare Life and the Arab Uprisings." *Third World Quarterly* 38, no. 8 (August 3, 2017): 1782–99.

- Malkki, Liisa H. "Refugees and Exile: From 'Refugee Studies' to the National Order of Things." *Annual Review of Anthropology* 24, no. 1 (October 1, 1995): 495–523.
- Massouh, Firas. "Searching for Salvation: Yassin al-Haj Saleh and the Writing of Modern Syria." MA, The University of Melbourne, 2015.
- Miraftab, Faranak. "Displacement: Framing the Global Relationally." *Framing the Global: Entry Points for Research*, January 1, 2014, 37–50.
- Mitchell, Timothy. "The Limits of the State: Beyond Statist Approaches and Their Critics." *American Political Science Review* 85, no. 1 (1991): 77–96.
- Obeid, Michelle. "Home-Making in the Diaspora Bringing Palestine to London." In *A Companion to Diaspora and Transnationalism*. Blackwell Publishers, 2013.
- Rygiel, Feyzi Baban, Suzan Ilcan, Kim. "Playing Border Politics with Urban Syrian Refugees. Legal Ambiguities, Insecurities, and Humanitarian Assistance in Turkey." *movements. Journal for Critical Migration and Border Regime Studies* 3, no. 2 (November 3, 2017).
- Saleh, Yassin al-Haj. "Freedom: Home, Prison, Exile...and the World." Translated by Rana Issa. Yassin al-Haj Saleh, April 3, 2017.
- Schiller, Nina Glick, Ayşe Çağlar, and Thaddeus C. Guldbrandsen. "Beyond the Ethnic Lens: Locality, Globality, and Born-Again Incorporation." *American Ethnologist* 33, no. 4 (2006): 612–33.
- Turner, Joe. "(En)Gendering the Political: Citizenship from Marginal Spaces." *Citizenship Studies* 20, no. 2 (February 17, 2016): 141–55.
- Wimmer, Andreas, and Nina Glick Schiller. "Methodological Nationalism and beyond: Nation–State Building, Migration and the Social Sciences." *Global Networks* 2, no. 4 (2002): 301–34.

**Shattuck Center
on Conflict,
Negotiation and Recovery**

Central European University

Nador u. 9 | 1051 Budapest |
Hungary Phone:
+36.1.327.3000 | ext. 2614

aleppo@spp.ceu.edu